السرديات وعلم اللغة

دراسة بينية؟

هي دراسة بينية، برغم أن هناك من يراها غير ذلك، وحجتهم أن السرد فن لغوي، وأن المادة الخام التي تشكل عناصر السرد هي اللغة، فالشخصيات كائنات من كلمات، والمكان شذرات جمل وعبارات، والصراع موجود في اللغة وليس في الواقع. ومن ثم لا يمكن تجاوز اللغة ونحن نبحث في السرد. وهذا صحيح، ويبدو كأنه من البدهيات، لكن للأمر وجها آخر.

قبل ذلك لا بد أن نشير إلى بدهيات أخرى، فهناك فرق بين السرد والسرديات، الأخيرة هي علم السرد بمصطلحاته وآليات تحليله، بينما السرد هو الإبداع نفسه. كما أن هناك فرقا بين اللغة وعلم اللغة أو اللسانيات. مثل هذه البدهيات مدخل لازم لبحث الأسباب التي تبرر بينية دراسة السرد من منظور لساني.

أول هذه الأسباب وربما أهمها أن لكل من السرديات واللسانيات نظام بحث متماسك مغلق على نفسه، قد يستفيد من حقول معرفية مجاورة له، لكنه يهضمها ويحيلها إلى ما يشبهه. نظام له مصطلحاته الخاصة وآليات تحليله ومجال عمله، برغم أن الاثنين معا يشتغلان على اللغة، لكن لكلٍ وجهة هو موليها.

ثاني هذه الأسباب أن اللسانيات شبه علم قطع شوطا طويلا عبر مئات السنين في الطريق إلى أن يكون علما، بينما السرديات حقل جديد لا يتجاوز عمره بضع عشرات من السنين، منذ أن بدأ الشكلانيون الروس يضعون أولى لبناته إلى أن تعقدت مداخله وأطروحاته، وانقسمت أصوله إلى فروع ما لبثت أن تحولت إلى أصول لفروع أخرى، وهكذا. هذا الفارق الزمني يمارس سطوته على تقاليد العلم وأعرافه، فبينما تبدو أعراف العلم وتقاليده في اللسانيات أقرب إلى اليقين، فإن هذه الأعراف في السرديات ما تزال تبحث عن يقينها الخاص.

ثالث هذه الأسباب أن موضوع العلم في كل حقل مختلف عن الآخر، اللسانيات موضوعها اللغة، بينما السرديات موضوعها النص الحكائي، والفرق بين الاثنين كبير. اللغة نظام معقد أبرز وظائفه التواصل، بينما النص الحكائي نظام أكثر تعقيدا أبرز وظائفه الإمتاع.

هناك محاولة جادة للاستعانة بنظام اللسانيات في درس السرديات قام بها روجر فاولر Roger Fowler، وهو لساني بريطاني مهتم بالأسلوبية، وأهم كتبه "النقد اللساني Linguistic Criticism". وجد فاولر في كتابه "اللسانيات والرواية Linguistics and The Novel" أنه يمكن مقاربة النص الروائي من منظور لساني من خلال الاستعانة بالمصطلحات الأساسية في اللسانيات ومحاولة فهم هذا النص على ضوئها.

هو يبدأ مقاربته بالتأكيد على أهمية التقنية في الدرس السردي التي يراها الأساس الوحيد لفهم طبيعة السرد، ثم يرى أن تقنية الكاتب أولا وأخيرا هي مهارة في اللغة، ثم ينقل عن لودج قوله: وسط الروائي هو اللغة، ومهما ينتج بوصفه روائيا، فإنه ينتج في اللغة ومن خلالها. إن بنية الرواية – ومهما كان ما تريد إيصاله – تحت السيطرة المباشرة لتلاعب الروائي باللغة، ومن ثم تلاعب الروائي بالعاطفة المتجددة للقارئ، ورغبته وقدرته على إدراك التقنية، وتحريره من المفاتيح اللفظية التي يودعها المؤلف في العمل.

ثم يقارن بين النص والجملة، ويرى أن النص يتكون أحيانا من جملة واحدة كما في الأمثال "درهم وقاية خير من قنطار علاج"، أو الأمر "من فضلك، أغلق النور". لكن النص في العادة يتكون من سلسلة متتابعة من الجمل، وبالتالي تكون الجملة عنصرا في النص أو وحدة فيه. مع ذلك يرى فاولر أن بنية النص السردي تشبه بنية الجملة على

الرغم من كونه مبنيا من مجموعة من الجمل، وهذا يعني أن أبواب البنية التي يقترحها لتحليل الجملة المفردة في اللسانيات يمكن أن تمتد لتطبق على البنية الأكثر اتساعا في النصوص الحكائية، ويعطي مثلا بالأسماء التي هي من عناصر بنية الجملة، وهي أيضا عنصر من عناصر بنية الحكي.

يتبنى فاولر منظور تشومسكي في النحو التحويلي التوليدي، أهم مصطلحاته هي البنية السطحية والبنية العميقة للجملة، ويسميها هو الشكل والمضمون، يرى – بناء على تصور تشومسكي أن الجملة مزيج من البنية السطحية والبنية العميقة. أما البنية السطحية، فهي الجزء الملحوظ والمعبر عنه والواقع في الجملة. معظم الرموز المجسدة والرموز الصوتية والمكتوبة، وبشكل أكثر تجريدا النظم syntax: نظام الكلمات وشبالجمل word and phrase-order. وأما البنية العميقة، فهي المحتوى المجرد في الجملة: بنية المعنى المعبر عنه. إننا نختبر البنية السطحية مباشرة، أما البنية العميقة، فنكتشفها من خلال عملية معقدة في فك الشفرة decoding.

إن البنية السطحية لها خواص properties مهمة أيضا في بناء الرواية وقراءتها، إحدى هذه الخواص هي الخطية Linearity في الجملة (بنيتها السطحية), لكنها ليست خاصية في معنى هذه الجملة. إن المعنى شيء مجرد. إن الخطية تتحرك من اليسار إلى اليمين في الفضاء أو في الزمن محولة انتباه القارئ طويلا، وهي تعيقه في بعض الأحيان. إننا يمكننا استخدام التتابع الخطي لاكتشاف زمن الحكي narrative time، كما في هذه الجملة من رواية هيمنجواي (وداعا للسلاح A farewell to Arms 1929):

أحضر أحد الأطباء رينالدي، لقد دخل بسرعة، وانحنى على السرير، ثم قبلني، لقد رأيته مرتديا قفازات.

One of the doctors brought in Rinaldi. He came in very fast and bent down over the bed and kissed me. I saw he wore gloves.

كان يمكن التعبير عن هذه الحادثة بأسلوب مختلف، لكن هذا التتابع المختار يوصل الحركة من خلال الزمن، لاحظ كيف أن وضعية الجملة الأخيرة – بعد التتابع الزمني الواضح – توحي بأن القفازات قد تمت رؤيتها في الجزء الأخير بعد القبلة، وليس قبل ذلك، عندما دخل رينالدي من الباب لأول وهلة، لا شيء يعرض هذا النظام الزمني chronological order، لكنه متضمن في التتابع الخطي للبنية السطحية.

يطرح فاولر نظريته في هذا التصور البسيط الذي يربط به اللسانيات بالسرديات: فهو يرى أن **الجملة** لها **بنية سطحية**، تشكلها **تحويلات البنية الدلالية العميقة**، مكونة مركبا **صيغيا**، إضافة إلى مركب **إخباري**. والأخير مؤسس على **مسند**، يلازمه **اسم**، أو أكثر في **أدوار** مختلفة.

وهو يرى أنه من السهل تطبيق هذا المخطط على النصوص الحكائية، فالبنية السطحية للنص (التي هي تتابع من عدد من الجمل) تملك خصائص نوعية مثل البنية السطحية للجملة. وبعض هذه الخصائص هو: التتابع، والإيقاع، والتعبيرية المكانية والزمانية عن أنواع مختلفة: ترقيم الصفحات، الفقرات، تقسيمات الفصول والأجزاء الأخرى، الاختلافات الطباعية أينما أملى الروائي عمله. وتشتمل البنية النصية السطحية أيضا على عدد من السمات تتلازم – تقليديا – مع فكرة (الأسلوب)، وبخاصة هذه السمات التي تعتمد على إيقاع الجمل، وإيقاع تنظيمها في تتابع معين. وتشكل التحويلات البنيات النصية السطحية مثل البنيات الجملية بعيدا عن العناصر المجردة المختارة تحت السطح.

يطرح فاولر أفكارا كثيرة في الربط بين الحقلين: السرديات واللسانيات، لكن أكثر هذه الأفكار لفتا للنظر هو مقارنته بين ثلاثة أضرب في البنيات اللسانية ومثيلاتها في البنية السردية

الجملة Sentence	العمل الروائي Prose fiction
البنية السطحية surface structure	النص text
الصيغية modality	الخطاب discourse
الخبر proposition	المحتوى content

يعني النص البنية السطحية النصية، فهو أكثر أبعاد العمل إدراكا ورؤية، وهو مرتبط بإحساس الناقد الأدبي بالنص على أنه شيء شكلي. وبالنسب للساني، فإن البنية السطحية النصية عبارة عن سلسلة من الجمل ترتبط بالشكل من خلال تتابع مستمر ومتماسك. إن تيار الجمل يشتمل على إيقاع وسرعة محددتين في القراءة، وكذلك على نظام مخصوص في عرض المعلومات، وأيضا على دليل لانتباه القارئ وسيطرة على ذاكرته.

يدرس الخطاب في كل أشكال الرواية مفاهيم مثل: "الحوار" و"وجهة النظر" و"الاتجاه attitude" و"رؤية العالم" و"النغمة". وتظهر الإشارة في البنية اللغوية لمعتقدات المؤلف، وكذلك نمط العمليات الفكرية لديه، وأنماط الحكم التي يقوم بها. وبالمثل الراوي والشخصيات داخل العمل الروائي، وكذلك الشبكة الكاملة للعلاقات التواصلية بين المؤلف والشخصيات والقارئ الضمني. كل هذا يظهر عبر وسيط هو اللغة. والخطاب عندي مشابه للصيغية في بنية الجمل، وهو مركب من الأفعال الصيغية (may .. الخ) وظروف الجملة sentence-adverbs (من المحتمل possibly) والأفعال مثل: (يبدو، يشعر)، والضمائر الشخصية، وأفعال الكلام مثل: الأمر والسؤال .. الخ.

وبالنسبة للمحتوى، فهو يعني به: الحبكة، الشخصية، الخلفية، التيمة. كل هذا مرئي في مصطلحات الأفعال العميقة deep verbs والأسماء والسمات الدلالية. ولأسباب أوضحها في سياق الكتاب، فقد قدم تحليلا واضحا ومختصرا لهذا البعد في البنية الحكائية معتقدا أن مهمته بوصفه لسانيا هي التركيز أكثر على البنية الجملية للنصوص، ومع ذلك، فإن من الطبيعي كما يقول هو "أن تتضمن بعض تعليقاتي على البنية اللسانية رؤى حول ما يجري تحت البنية، مادام الشكل والمحتوى متلازمين في النهاية. وهكذا نتجه ناحية التفسير.

يكرس فاولر بقية كتابه لتطبيق مفاهيمه الأساسية على نصوص سردية كثيرة، حاولت هنا أن أعرض لأهم أفكاره النظرية التي تكشف عن الكيفية التي يتفاعل بها حقلان معرفيان مختلفان في البنية، لكنهما مشتبكان في الأهداف والرؤى.

الكتاب "Linguistics and The Novel" صدرت طبعته الأولى في العام 1977، وأعيدت طباعته أكثر من مرة، وترجم إلى العربية مرتين. مع ذلك لم تلق نظريته ما تستحق من اهتمام سواء في حقل اللسانيات، أو في حقل السرديات.

لعل هذه الكلمة تلفت النظر إليه مرة أخرى.

أحمـد صبـــرة

رئيس التحرير